غـدر وخيانـة

وتستيقظ مصر فى صبيحة يوم عابس من شهر يونيه عام 1967م على صوت الـهزيمة التى لم تستطيع أن تتبينها وتستوعبها إلا بعد فترة من الوقت. . فقد كان دوى القنابل يصرخ فى كل مكان، والطائرات المصرية دفنت فى مواقعها ولم تتح لـها الفرصة لتقف على قدميها فى مواجهة العدو بينما وسائل الإعلام تذيع أنباء وأخبارا ظاهرها يتحدث عن النصر والظفر وباطنها فيه الـهزيمة والعذاب.

وفوجئ الشعب بالقوات الإسرائيلية تقف على الشاطئ الشرقى للقناة بعد أن سبقتهم البقية المذعورة من فلول جنود الجيش المصرى المنهزم فى سينا ء.

وشهدت المنطقة ما بين العريش وضفاف القناة معارك شرسة استعملت فيها إسرائيل كل ألوان الأسلحة التى تملكها أو تريد أن تجربها، وظهرت وحشيتها فى أقبح صورة يمكن أن يتخيلـها بشر. . فبعد ضربها المفاجئ للمطارات فى مواقعها المختلفة، وتدمير الطائرات فى مرابضها، زحفت قواتها إلى الغرب وهى مطمئنة على نفسها من هجمات الطيران المصرى الذى أمنت جانبه.

ودخلت العريش بعد معركة شرسة فأجأت فيها الحامية المصرية التى لم يخطر ببالـها مثل هذا الـهجوم المباغت، فما معها من سلاح وعتاد قليل ضعيف لا يصمد أمام هجمات العدو.

وحدثت فى صحراء سيناء وقائع يشيب من هولـها الوليد. . ففى كل مكان تنزل فيه القوات الإسرائيلية تحرق وتدمر ولا تبقى على شىء. . حى كانت تجمع الجنود المصريين الذين استسلموا بعد نفاد ذخيرتهم ورفعوا الراية البيضاء

وينتظرون أن يعاملوا كأسرى حرب وفقًا للقوانين الدولية المتفق عليها. . تجمعهم وتوقفهم صفوفًا متراصة وتطلق عليهم النيران فتقضى عليهم جميعًا وتتركهم فى العراء نهبًا للوحوش دون أن تواريهم تحت الرمال. . بل قد بلغ من قسوتها أنها تأمر الجنود المصريين بالنوم على الأرض وتمر عليهم بالعربات المجنزرة فتمزق أجسادهم شر ممزق فتمتزج بالرمال لتتحول شيئًا واحدًا لا يستطيع الإنسان أن يتبين فيه جزءًا محددًا من أجساد هؤلاء البشر. . وما أكثر ما ربطوا رقابهم بخيوط من السلك، وشدوها إلى أقصى درجة ممكنة ثم تركوهم يعانون الموت البطيء.

لقد تفننوا فى شتى ألوان الوحشية والجبروت. . كأنهم يثأرون لكراهية الدنيا لـهم، وصبّوا هذا الثأر على أبناء الشعب المصرى.

وامتلأت صحراء سيناء بالدبابات المحترقة، والعربات المحطمة، والأشلاء الممزقة هنا وهناك. . وأصبحت رمال سيناء قبرًا مفتوحًا يتناثر فوق أديمها أعز أبناء مصر وأكثرهم بطولة وتضحية. . بل إن الرمال كانت أكثر رحمة من هؤلاء، فزحفت عليهم بفعل الرياح والعواصف ودارتهم تحت غطائها ضنًّا بهم من وحوش الليل الضالة.

حتى الخراف والماعز والنباتات لم تسلم من أذاهم فصبوّا جامَ حقدهم على الحيوان كما صبوه على الإنسان. . ولم يتركوا حظيرة للماشية إلا أحرقوها بكل ما فيها. . حتى الوديان الجميلة بزروعها المثمرة الخضراء رموها بقذائف اللهب فأحالوها فحمًا أسود. . وجعلوا كل شىء تحت أقدامهم خرابًا. . فهدفهم التدمير والـهلاك لكل من عداهم.

ودافع أبناء سيناء عن أرضهم دفاع الأبطال. . وشاركوا جنود الوادى فى

جميع المعارك الدائرة . . فلم يتخلوا عن شبر واحد إلا بالحديد والنار تاركين فوقه أعظم شاهد على بطولتهم . . دماؤهم وأشلاؤهم .

وحينما يسكن الليل وتهجع الشراذم المفترسة استعداداً لوثبة غادرة فى صبيحة اليوم التالى ، يسعدون فيها برؤية العذل والأبرياء والرصاص يحصدهم والدبابات تطحنهم والدماء تتدفق هنا وهناك فتثير فيهم النشوة المجنونة المتعطشة إلى كل شيء سيئ وقبيح . . فى هذا الوقت تتسلل جماعات من البدو نحو ساحات المعارك تبحث عن جريح تداويه ، أو قتيل بقى منه شيء تواريه جوف الرمال ، أو متاع مبعثر هنا أو هناك تستولى عليه . . وما أكثر ما ترك الشهداء خلفهم على صفحات الرمال من أشياء تبدو فى مظهرها تافهة لا تشد النظر وهى فى وجودها ذكريات غالية تضم آمالاً عريضة طوتها الرمال .

فهناك قصاصات من رسائل تحمل قصة حب من حبيبة ، أو لوعة فراق من والدة ، أو لـهفة بُعد من صديق ، أو نصيحة أو توجيه من أب شجاع صبور ، وغير بعيد منها تمائم وآيات من القرآن الكريم أهديت لأصحابها للذكرى ، لم يُبق منها الطغيان إلا قطعًا باهتة تلوثها الدماء .

وعلى مقربة من شاطئ العريش وجد بعض البدو جريحًا بترت ساقه والدماء تنزف منه بغزارة وهو فى غيبوبة لا يدرى بمن حولـه ، وتفحصه الرجال فوجدوه شابًا فى مقتبل العمر وسيم المنظر قوى البنية يبدو من بعض ملابسه أنه من رجال البحرية المصرية . . وحمل الرجال الجريح إلى منزلـهم فهو لا يبعد كثيرا عن هذا المكان آملين فى شفائه .

ويعمل هؤلاء الرجال فى مخبز يملكونه . . فما وصلوا إلى هناك أضجعوه فى مكان بالداخل ونظفوا جرحه وكووا مكان البتر ووضعوا عليه بعض الزيت

حتى يوقفوا النزيف . . إنهم يستغلون طبّهم البسيط الذى ورثوه عن آبائهم وأجدادهم فى علاج أمراضهم وجروحهم . . وتعهدوه بالرعاية والعلاج حتى تقدمت صحته بعض الشيء . . وأخفوا مكان وجوده عن الدوريات الإسرائيلية التى تمر صباح مساء تبحث عن الناجين أو الجرحى من أبناء مصر لتقضى عليهم فلا ترحم مريضًا أو تشفق على جريح ، أو تترك هاربًا .

وأمام نيران الفرن المتوهجة يتذكر الجريح ما حدث لـه ويستعيد اللحظات القاسية التى مرت به كأنها يوم الـهول .

ولم يسألـه أحد من الرجال عمن يكون بل احترموا صمته وتركوا لـه حرية التعبير عن حياته عندما يريد .

ومرت الأيام بطيئة يدفع بعضها بعضًا ، وصحته فى تقدم مستمر ، وشيئًا فشيئًا بدأ لسانه ينطلق ويفصح عما بداخلـه ، وأصبحت حياته كتابًا مفتوحًا قرأ فيه أصحاب المخبز كل شيء عنه .

عرفوا أن اسمه أحمد عبد الخالق ويعمل مرشداً فى البحرية المصرية بالعريش . . ووالده الصول عبد الخالق أحد الأبطال الذى استشهد فى معارك 1956م . . وقبره غير بعيد من هنا ، وبعض سكان العريش يعرفونه . . ولـه أخ شهيد فى بورسعيد وأخوه الثالث جابر يعمل بهيئة قناة السويس بالإسماعيلية . ولاشك أنه بحث عنه وتأكد أنه من الشهداء أو المفقودين ، ويودّ أن يجد وسيلة تتيح لـه الاتصال بأخيه ليعرف حقيقة مكانه ويهيئ لـه وسيلة استكمال علاجه .

كما أنه لا يعرف كيف نجا من الموت . . فبعد عودته من العمل طيلة الليل فوجئ فى صبيحة اليوم بالقوات الإسرائيلية تهاجم مسكنهم وهم نيام . . بعد أن دكت المطارات والمعسكرات وسفن التدريب ، وأمطرتهم وابلاً من الرصاص

وقتلت معظم زملائه وهم نيام كما تفعل عصابات اللصوص . . وتمكن هو من الـهبوط أسفل المنزل مع آخرين ولكن القوة التى تقف أمام المنزل لم تترك لـهم فرصة النجاة . . فلم يشعر إلا ونيران المدافع الرشاشة تلـهب جسده وساقه . . وغاب عن وعيه حتى ساقهم الله إليه فأنقذوه من موت محقق . . فالإسرائيليون ظنوه ميتًا . . ولو وجدوه يتحرك ما تركوه حيًا . . فلم يتركوا أحدًا ممن كان معه على قيد الحياة . . دون تفرقة بين مدنى وعسكرى وكبير وصغير .

وتذرف الدموع من عينى أحمد وهو يستعرض فى مخيلته توقعه لما حدث وأنه كان متأكدًا أن إسرائيل تنسج خيوط الغدر والخديعة حتى نقع فى حبائلـها ونجحت فيما أرادت . . لغفلة منا أو استهانة بالواقع الذى يحيط بنا . . وأفلح الروس أيضًا فى خداعنا ليصرفوا أبصارنا عن قوة إسرائيل، ويوهمونا كذبًا بقوتنا الوحيدة الضاربة فى الشرق الأوسط . . فلم تكن لدينا الطائرات التى تواجه الطيران الإسرائيلى، ولا القوة المدربة التى تقف أمامه، ووضعنا على أعيننا غطاء من الغرور استحال هباء تذروه الرياح عند أول عاصفة هبت علينا فألقت بنا فى مكان سحيق .

وتصطك أسنانه غيظًا، ويتمنى لو يعود الماضى ليصرخ فى رؤسائه بأعلى صوت محذرًا إياهم من الخطر الذى يقترب منهم وهم عنه غافلون .

وينقل أصحاب المخبز أحمد إلى مستشفى العريش تحت اسم مستعار اصطعنوه لـه ليبعدوا عنه خطر اليهود حتى يكمل علاجه فيه .

ويقيم فى المستشفى عدة أيام إلى أن تأتى لجنة طبية من الصليب الأحمر الدولى فتقابل الجرحى والمصابين لتتفقد أحوالـهم، ويطلب منهم أحمد أن ينقل إلى إحدى المستشفيات فى السويس أو الإسماعيلية لإتمام علاجه . . فهو مواطن

مصرى ولم يكن من بين المحاربين . . ومن حقه أن يعامل كأسرى الحرب من المدنيين . . حيث لا يتوفر الأسلوب الصحيح لعلاجه هنا .

وبعد مفاوضات مضنية ومراوغات من اليهود استمرت وقتا نقل بعض الجرحى والمرضى إلى مستشفى السويس بمبادلتهم بجرحى وأسرى من اليهود لدى الجانب المصرى .

وكان أحمد من بين المنقولين إلى السويس باسمه المستعار الذى لا يعرفه به أحد إلا أنه مواطن مصرى أصيب فى العريش أثناء عملـه . . وافصح أحمد عن اسمه الحقيقى للمسئولين فى المستشفى وعن طبيعة دوره لدى القوات البحرية المصرية . . فهو رجل عسكرى أصيب فى عملـه أثناء الحرب ولقى العناية التى يستحقها أمثالـه .

وبحث جابر عن أخيه فى الأماكن التى يتوقع وجوده فيها أو استشهاده على أرضها . . وفى كل مرة يعود بالألم والخيبة . . فلا هو بين الشهداء ولا بين الأسرى . . وعاش شهورا عصيبة حزنًا على أخيه وعلى أسرته التى شاء لـها القدر أن يكتب معظم أفرادها سطور البطولة والتضحية فى سبيل الوطن . . فوالدهم هو الرائد الأول فى طريق النضال، وبدمه سجل صفحة مشرقة للأبطال المناضلين . واستشهاد أخيه حسين فى ملحمة بورسعيد الباسلة ليس عنه ببعيد . ووالدته شهيدة الصبر والكفاح أكملت مسيرة إعداد هذه الكتيبة الصغيرة من أبنائها لتأخذ موقعها فى المسيرة العظيمة التى سلكها والدهم من قبل . . وها هو أخوه الثانى فى خضم المعارك لا يعرف عنه شيئًا . . وكأنما قدّر لـه أن يعيش وحيدًا فى درب الحياة الطويل وينتظر الدور الذى أُعدّ لـه . . فالمعركة قد بدأت . . وخطواتها شاقة ومؤلمة . . ولـهيب الحرب اشتعل وسوف

يصطلى به الكثير والكثير . . ولا يعلم إلا الله إلى أين تمتدّ ألسنته . . ومادام شعارنا الآن هو : ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة . . فلنسلح أنفسنا بهذه القوة ونخوض غمار معركة معروفة البداية ولكنها مجهولة النهاية .

وحاولت آمال بكل ما لديها من طاقات الحب أن تخفف شجونه وتبعد عنه شبح الحزن الكئيب الذى تسلل إلى قلبه . . وتستثير فيه مشاعر الإيمان والوطنية والاستسلام لقضاء الله وقدره . . وأفاضت عليه من حبها وحنانها ما هوّن عليه بعض الآلام ، ودائمًا تذكره بأنهما صنوا جهاد . . وكأن القدر أعدّ لـهما طريقًا واحدًا يسلكانه معًا . . وما أقرب الشبه بين أسرتيهما . . فكلاهما من أسرة مناضلة استشهد معظم أفرادها فى سبيل الوطن . . وحملت الأم أعباء الكفاح من بعدهم لتشق الطريق الصعب وتكمل المسيرة المضنية .

وأفلحت شافية الحب الساحرة أن تعالج بعض جراحه ، وتسلمه إلى حالة من السكون . . لا يستبين من خلالـه فرح أو حزن ، أو يتراءى فى ظلـه يأس أو قنوط . . وسارت حياته الرتيبة على خط واحد لم يتغير . . يغيب أياما فى عملـه يرشد السفن ويخرجها إلى بر الأمان ويعود فى إجازة قصيرة يقضيها بين يدى آمال فتعطيه من حبها لمسات دافئة تنسيه آلامه . . وتحببه فى الحياة وتدفعه إلى التمسك بها وعدم اليأس . . إنه كغصن ذابل امتصت رحيقه الأحزان فسكبت فيه آمال قطرات الندى فى الفجر الوليد فاخضرت جوانبه وانتعشت فيه الحياة .

وسعدت آمال بهذا التطور فى حياة جابر ، واطمأنت إلى مكانتها فى قلبه . . فغدًا أو بعد تلتئم الجراح وتسير بهما الحياة ، فالزمن لا يتوقف أبدًا مهما أظلم الطريق وأحاطت به الأعاصير .

وبينما جابر يقود إحدى السفن ليخرج بها من مكان الخطر، وضجيج الآلات يكاد يصمّ أذنيه، وسحب سوداء تلبد جو الأفق، والأمواج العالية تلطم جوانب السفينة فى غضب وعنف، فيشيع كل هذا فى نفسه شعوراً بالكآبة والحزن، إذا به يسمع عبر الـهاتف اللاسلكى صوتًا يناديه لم يُعره التفاتًا فى أول الأمر؛ لأن التوجيهات والتعليمات تنطلق طيلة عملـه من الإدارة المركزية مما يجعل النداء شيئًا مألوفًا لديه يسمعه هو أو ينقل إليه، فيؤدى ما يطلب منه بتعديل مسار سفينته أو الانتقال إلى سفينة أخرى.

ولكن الصوت هذه المرة هزّ وجدانه فقد سمعه بقلبه قبل أن تلتقطه أذناه.. إنه صوت آمال تناديه وتلحّ فى طلبه ويجيبها متسائلاً عن سبب طلبه فى هذا الوقت الذى أثار فيه كثيراً من دواعى القلق والخوف.. وتجيبه آمال بصوت ضاحك فيه نغمة فرح ورنة بشرى : أتعرف لماذا طلبتك؟ إن أخاك أحمد حى لم يمت.. وقد نُقل بالأمس إلى مستشفى السويس عن طريق هيئة الصليب الأحمر، وأبلغتنا إدارة المستشفى برغبته الملحة فى لقائك فهو يعرف مكان عملك ويريدك أن تسارع بالذهاب إليه.. وقد طلبتُ لك إجازة لمدة يومين ابتداءً من صباح الغد وسأكون فى انتظارك على رصيف الميناء لنسافر سويًّا لمقابلته.

وانتهى حديث آمال ولم ينته وقع الخبر على نفسه.. فشعر بالسعادة تغمر جسده وقلبه، ودبت فيه روح جديدة، فخيل إليه أنه يرى أباه وأمه وأخاه حسين وقد بعثوا أمامه من جديد، ولم يعد وحيداً فى هذه الدنيا.. وعاودته ذكريات صباه مع أحمد وهما طفلان يلعبان معًا ويدرجان نحو الشباب حتى وصلا إلى نهاية تعليمهما فتفرقت بهما السبل.. إلا أنه لم يبتعد بقلبه عن أحمد أبداً.. فهو قريب منه فى كل شيء يلتقى به ويزوره كلما سنحت لـه الفرصة.. حتى قام العدو بضربته الغادرة فلم يعرف لـه مكانًا، وكاد يفقد الأمل فى لقائه لولا بصيص ضئيل فى إمكان العثور عليه يتراءى لـه حينًا ويختفى من أمامه فى أكثر

الأحيان.

مرت هذه الخواطر أمامه فى سرعة كشريط يشاهد على صفحاته ذكرى سنوات حلوة انقضت ولم يبق منه إلا أصداء ضعيفة تعاوده بين وقت وآخر فتربطه بالماضى حتى لا ينقطع عنه إلى الأبد.. ونظر أمامه فإذا السحب السوداء الداكنة تتبدل أمام عينيه على حرير شفاف يزين أطراف السماء.. وأصوات الرعد ترانيم جميلة أخاذة.. وومضات البرق اقتباس من نور يضىء الظلام.. والأمواج التى تلطم السفينة أياد ناعمة تصافح وتلمس وتداعب.

وفى صبيحة اليوم التالى نزل إلى الشاطئ فوجد آمال تنتظره فى لـهفة وشوق، فتشابكت أيديهما فى حب جارف صامت معبّرة عن مشاعر كل منهما للآخر.. وتركا العنان لعينيهما تسبحان فى بحر من الوجد ليس لـه شاطئ أو قرار.. وسارا متلاصقين بعيداً عن أعين الناس.. فالفرحة التى فى قلب جابر لو فاضت ما سمعتها الدنيا.. وآمال تشاركه فرحته.. وتوقفا على مقربة من صخرة الملتقى حيث نما حبهما وترعرع.. وتمنيا لو أن الحياة توقفت بهما عند هذا الحد فلم تتقدم أو تتأخر. وأفاق من سكرة الحب على صوت يتردد من بعيد فتباعد جسدهما وإن ظل اللهيب مشتعلاً بينهما.. وسارا حتى أشرفا على نهاية الطريق وافترقا على أن يلتقيا بعد وقت قصير للذهاب إلى السويس.